الفصل الثالث

تطور نظم الإنتاج

لم يعرف المجتمع الإنساني نظام المصنع الحديث قبل الثلث الأخير من القرن الثامن عشر حيث أخذ شكله التنظيم الصناعي المتطور في إنجلترة ثم ظهر في بلجيكة ثم في فرنسة ثم في ألمانية والولايات المتحدة الأمريكية، ثم ظهر بعد ذلك في كثير من البلدان بدرجات متفاوتة من حيث الحجم والتعقيد الاجتماعي، ولم يكن هذا التنظيم للإنتاج هو ما عرفه الإنسان، حيث كانت توجد تنظيمات صناعية في العصور القديمة والوسطى وبداية العصر الحديث، تباينت فيما بينها من حيث البناء والوظائف وكذلك من حيث علاقتها بمختلف الأنساق والتنظيم الاجتماعي في المجتمع التي تقوم فيه.

وقد حاول عديدٌ من المفكرين الاجتماعيين وضع توصيفات لهذه النظم الإنتاجية الاقتصادية بصفة عامة ونظام الإنتاج الصناعي بوجه خاص، فأشار عديدٌ منهم أن المجتمع البشري اجتاز أثناء تطوره الاقتصادي عدة مراحل، بدأت بمرحلة اقتصاد الجمع والصيد حيث اعتمد الإنسان لبقائه على جمع الثمار وصيد البر والبحر، وقد كان بذلك قنوعاً بما تمده وتجود له الطبيعة من خيرات، ثم انتقل بعد ذلك إلى اعتماد نشاط اقتصاد بسيط وهو نظام الرعي حيث بدأ استئناس بعض الحيوانات والماشية، وبعد ذلك بدأ يعرف النشاط الزراعي والاستقرار حيث توجد المياه والأنهار والواحات، ثم اعتمد مرحلة نظام إنتاجي تحويلي بسيط لموارد الطبيعة حيث شعر أثناء هذه المرحلة بالتحرر من سيطرة الطبيعة ونمط الصناعات اليدوية غير المعقدة التي تستخدم في إنتاجها الأدوات والآلات البسيطة، بعد ذلك انتقل الإنسان بنشاطه إلى النظام التحويلي الصناعي المعقد عن طريق اعتماده نظام التصنيع، حيث شهد في هذه المرحلة انتشاراً

openkandil.com

للصناعة اليدوية ثم الصناعة الآلية، كما حاول فريق آخر من المفكرين التمييز بين أربعة نظم للإنتاج بدأت بنظام الإنتاج المغلق، التي كانت الجماعة بواسطته تنتج ما تحتاج إليه من سلع، حيث تكفي نفسها بنفسها دون أن تعتمد على ما ينتجه غيرها من جماعات، أما النظام الثاني فهو ما عرف بنظام الإنتاج الإقطاعي حيث كانت ملكية الأرض متمركزة في أيدي الأمراء والإقطاعيين، وقد كانت كل إقطاعية تنتج ما تحتاج إليه من مزروعات ومصنوعات، وقد عرف النظام الصناعي البسيط أثناء هذه المرحلة مما أدى إلى اتساع الأسواق المحلية بدرجة محدودة.

ثم انتقل المجتمع الإنساني إلى نظام الإنتاج الرأسمالي وهو الذي أخذ بالانتشار في غرب أوروبة مع قيام الثورة الصناعية في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، ويأتي بعد ذلك مرحلة نظام الإنتاج الاشتراكي حيث تحولت الملكية الفردية لوسائل الإنتاج إلى ملكية الدولة.

وفريق ثالث من المفكرين يرى أن مراحل الإنتاج الإنساني قد تطورت في خمس مراحل: هي مرحلة الإنتاج البدائي، ثم مرحلة العبودية (الرق)، ثم مرحلة الإنتاج ثم المرحلة الرأسمالية وأخيراً المرحلة الاشتراكية .

أما ما يتعلق بنظم الإنتاج الصناعي فقد عرض شنايدر Schnieder[1] ثلاثة أنواع فقط:

نظام الطوائف الحرفية Guilds:

حيث كان المشتغلون في حرفة واحدة يشكلون طائفة مميزة ذات تنظيم داخلي خاص بها، ولها وظائفها التي تختلف عن وظيفة النقابة في المجتمع الصناعي الحديث، وقد انتقل شنايدر بآرائه في نظام آخر عرف بنظام الوسطاء الذي يعتمد أساساً على الممول، الذي يتولى بنفسه شراء المواد الأولية اللازمة ويقوم

(1) عبدالباسط محمد حسن، علم الاجتماع الصناعي دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة 1982م، ص 94

بتوزيعها على الصناع في منازلهم، ثم يجمعها منهم بعد الانتهاء من إنتاجها ويتولى توزيعها على صغار التجار والمستهلكين، أما النظام الثالث فهو حسب ما يراه شنايدر هو نظام المصنع الحديث حيث يجتمع العمال في مكان واحد ويستبدلون أدوات الإنتاج بالآلات التي يمتلكها صاحب العمل دون العمال.

أما عن مراحل الإنتاج التي مرت بها كل من الولايات المتحدة وأوروبة فيعرض ميللر وفورم ثلاث مراحل وهي[2]:

1. مرحلة ما قبل الصناعة.
2. مرحلة الصناعة المبكرة.
3. مرحلة نضوج الصناعة.

ولكون نظام الطوائف كان معروفاً في الدول المتقدمة في الماضي وموجوداً إلى الآن في أغلب الدول النامية ومعروفاً في الجزيرة العربية والمملكة العربية السعودية، فقد رأينا أن نسهب في الحديث عنه نظراً لما يتميز به هذا النظام من أسس وقواعد تنظم هذا النشاط الاقتصادي، وتوضح واجبات ومسؤوليات كل فئة من هذه الطوائف وكذلك الأفراد المنضوين تحت تنظيمها، وكانت كل طائفة معينة تنتج نوعاً معيناً من السلع، ووفقاً لما يراه شنايدر Schneider بدأت الطوائف الحرفية في الظهور في أوروبة في القرنين التاسع والعاشر، وبلغت أوجها في القرن الثالث عشر، واستمر بعضها قائماً إلى القرن التاسع عشر كما أن بقاياها ما تزال قائمة إلى وقتنا الحاضر[3]، وقد قام نظام الطوائف لحماية بعض الناس من ذوي الحرف من ظلم الإقطاعيين وتكوين جماعات تدافع عن نشاطها وتنظيم شؤون صناعتها.

(2) المصدر السابق. ص 94.

(3) Mux Weber , General Economics History, Translation by Knight. F. Free Press E 11.1950 p. 136

obeikandl.com

والطائفة في مفهومها الاجتماعي عبارة عن تنظيم يضم العاملين جميعاً في حرفة واحدة كالنجارين والنساجين والحدادين وغيرهم، وهي بهذا المعنى تختلف عن النقابة العمالية التي ارتبط مفهومها بنظام المصنع الحديث، كون الطائفة تضم أصحاب العمل والعمال في حين أن النقابة تضم العمال وحدهم، يضاف إلى ذلك أن الطائفة وفقاً لتركيبها الداخلي تعمل لصالح الفئات جميعها التي تتكون منها على حين أن النقابة -خاصة في المجتمعات الرأسمالية- ترعى مصالح العمال وحدهم، وتدافع عن قضاياهم، وتقف من أصحاب العمل موقفاً معارضاً لوجود تناقضات أساسية بين أصحاب العمل والعمال[4].

ويتكون البناء الاجتماعي الداخلي للطائفة من ثلاثة أنواع من الأعضاء هم:

1. المعلمون
2. الصناع
3. الصبيان

فالمعلمون هم الذين يديرون ويتحكمون في نظام الطائفة، غير أن علاقتهم بعملية الإنتاج تختلف إلى حد كبير عن علاقة المدير أو صاحب المشروع بعملية الإنتاج في شكلها الحديث، فلقد كان المعلم يمتلك محله أو ورشته، ويستأجر الصناع الذين يشتغلون معه، غير أنه لم يكن بالضرورة مالكاً للأدوات التي يعملون بها، إذ كانت في أغلب الأحيان ملكاً للصانع يحضرها معه إلى مكان العمل[5].

يضاف إلى ذلك أن المعلم يعمل مع الصناع جنباً إلى جنب، وكان يفترض فيه أن يكون أكثرهم مهارة، وأوفرهم خبرة، وأعظمهم دراية بأصول الحرفة، فهو لا يصل إلى مركزه -ولو من الناحية النظرية- عن طريق استثماره لرأس مال معين، أو بواسطة التعيين، وإنما يتدرج في سلم طويل من الكفاءة والخبرة وطول المران[6].

(4) Sjaberg G. The Industrial City . The Free Press 1960. p 10

(5) المصدر السابق ص 31.

(6) المصدر السابق ص 32.

obeikandl.com

أما الصبي Apprentice فكان يدخل في خدمة المعلم وهو فتى صغير، ويلتزم بقضاء مدة تدريب تتراوح من ثلاث سنوات إلى سبع سنوات لدى المعلم إلى أن يصبح صانعاً ماهراً، ولم يكن يسمح للصانع أن يترك معلمه إلا بعد الحصول على موافقة شيخ الحرفة و إلا أصبح من العسير عليه الحصول على عمل مناسب آخر.

وكانت العلاقة بين المعلم والصبي تتضمن حقوقاً وواجبات من كلا الطرفين، فالمعلم كان يلتزم بتعليم الصبي أصول الحرفة حتى يتمكن في مستقبل حياته أن يصبح صانعاً أو معلماً، وهو مسؤول عن إيوائه وتربيته، وتلقينه آداب السلوك مثلما يفعل الأب مع أبنائه تماماً [7].

وكان الصبي من ناحيته يلتزم بجملة من الواجبات أهمها طاعة المعلم، وضبط النفس، والإخلاص، والأمانة، واتباع السلوك القويم، وكان في كثير من الأحيان لا يقدم على أمر مهم يخصه كالزواج إلا بعد الحصول على موافقة معلمه، وهكذا كانت العلاقة بين المعلم والصبي علاقة شخصية وثيقة[8]. وعندما تنتهي مرحلة التدريب، يصبح الصبي عاملاً باليومية Labor-Man[9].

ولا بد للصبي أن يمكث في العمل اليومي مع المعلم وذلك رداً للجميل الذي بذله المعلم له أثناء تدريبه، وفي بعض الأحيان يكون عاملاً متنقلاً بين معلمين مختلفين ليكسب خبرات متنوعة، ومهارات كثيرة، وكان الأمل الذي يراود الصانع أن يكون معلماً، أو أن يكون باستطاعته أن يفتح ورشة مستقلة تخصه.

أما من الناحية الوظيفية فكانت الطائفة تقوم بعديد من المهام ومنها ما يلي:

1. الموافقة على عدد الأفراد الذين يعملون في مهنة معينة.

2. وضع الدستور الذي ينظم علاقة شيخ الطائفة بالمعلمين والمعلمين بالصناع والصبيان وتحديد مسؤوليات كل طرف منهم وواجباتهم.

(7) المصدر السابق – ص 33.
(8) المصدر السابق – ص 33.
(9) المصدر السابق – ص 33.

openkandil.com

3. تحديد الأجور لكل فرد من أفراد الطائفة.

4. تحديد عدد السلع التي يمكن إنتاجها وذلك لكي لا يزيد العرض على الطلب في السوق.

5. تحديد أسعار السلع.

6. تحديد نسب الأرباح التي يحصل عليها العاملون.

7. التحكم فيما يستعمل من تكنولوجيا في الإنتاج وعدم إدخال أي تجديدات على هذه الوسائل وذلك لتأمين عنصر المساواة بين المنتجين[10].

ولكي يتسنى لرؤساء هذه الطوائف الإشراف الفعال على عمال الإنتاج فإنهم يرون ضرورة أن يعمل الحرفيون في محلاتهم وأبوابهم مفتوحة، بالإضافة إلى أنهم يعملون في الطرقات أحياناً، وقد كانت كل طائفة متخصصة بحرفة معينة يلتزم بها أعضاؤها جميعاً إلى درجة أن صناع الأحذية في فرنسة مثلاً لم يسمح لهم إلا بالقيام بصنع الأحذية الجديدة، أما إصلاح الأحذية القديمة فكانت تقوم بإصلاحها طائفة أخرى تعرف بالإسكافية، كما أن هذه الطوائف تعمل على تحديد مواصفات كل سلعة وبهذا فقد شكلت الطوائف عقبات عديدة في سبيل التقدم التكنولوجي للسلع. ولقد كان الانضمام إلى الطوائف مفتوحاً للأفراد جميعاً بحيث كان من اليسير على الصناع أن يتمرسوا في الحرفة ويصبحوا معلمين وأصحاب ورش، إلا أن هذا الأسلوب لم يدم طويلاً حيث أصبحت الطوائف مغلقة أمام عديدٍ من الأفراد وأضحت حكراً على مرتبة المعلم وأبنائه وحدهم، وقد اتخذ المعلمون عدداً من الإجراءات لتنفيذ هذا التوجه للحد من ترقي الحرفيين في السلم، ومن بينها أن يدفع الصانع الذي يريد أن يصبح معلماً رسوماً مرتفعة مما يتسبب في عدم تمكنه من دفعها، ومن ثم عدم ترقيته إلى المرتبة الثانية في سلم الطوائف، كأن يتطلب منه أن يقوم بعمل فني دقيق وصعب

(10) Miller D. and Form. W. Industrial Sociology - the Sociology of Work Organization, First reprint ed Japan 1964. p 29

التنفيذ أحياناً لمعرفة مدى تمكنه من الحرفة من ناحية وللحد من إمكانية ترقيته من ناحية أخرى، ومما ترتب على ذلك ازدياد البعد الاجتماعي بين أعضاء الطائفة الواحدة، وانتهى الأمر بالصانع إلى أن يظل أخيراً مستديماً[11]. وقد رفض الصناع هذا الوضع الذي أراد أن يفرضه عليهم المعلمون، فكونوا جمعيات للدفاع عن مصالحهم عرفت باسم جمعيات عمال اليومية Journey Man Sociality، وكانت في توجهاتها تشبه النقابات العمالية شبهاً كبيراً، حيث كانت تعبر عن مطالبهم وحقوقهم الاقتصادية والاجتماعية، تماماً كما كان يعتمد العمال على أسلوب الإضراب للعمل على تحسين ظروف حياتهم وأوضاعهم[12].

أما عن التخصص في العمل في أصل نظام الطوائف الحرفية فلم يكن موجوداً بالمفهوم المتعارف عليه، حيث كان الصانع يقوم بالعملية الإنتاجية للسلعة بأكملها، يضاف إلى ذلك فإن أعضاء الحرفة كانوا يستخدمون الأدوات في عملية الإنتاج ولم تكن الآلات التي كانت تفرض وجود التخصص موجودة في ذلك الوقت، وقد أدى وجود هذين العاملين إلى عدم تقسيم العملية الإنتاجية إلى جملة وحدات جزئية وعامل الصناعة اليدوية - أن أصبح العمل في الطائفة بعيداً عن التخصص الذي يؤدي غالباً إلى الرتابة والملل والآلية[13].

هذا وقد بدأ نظام الطوائف بأوروبة بالانقراض نتيجة لعدد من العوامل نذكر منها الآتي:

1. ظهور نزعة التنافس بين المعلمين والصناع ورغبة المعلمين بالاستئثار بالحرف وجعلها قصراً على أبنائهم، مما أدى إلى وجود انفصال بين المعلمين والصناع الذي تسبب في عدم مد السوق بأيدي حرفية منتجة بالقدر المطلوب.

(11) المصدر السابق ص 34.
(12) المصدر السابق ص 34.
(13) عبدالباسط محمد حسن، مصدر سابق، ص 100.

obeikandl.com

2. تدخل الدولة في تنظيم شؤون الطوائف الحرفية وجعل فض المنازعات التي تنشأ بين المعلمين والصناع والصبيان من اختصاصات السلطة القضائية.

3. انحسرت الحرف في أيدي عدد بسيط من المعلمين مما جعلهم يسيطرون على أدوات الإنتاج واستغلال نفوذهم في منع الأعضاء والمعارضين من التصويت في مجلس الطائفة، كما أن المعلمين أصبحوا مندفعين نحو الربحية بصرف النظر عن الجودة في المنتج مما أفقد الطوائف الثبات والاستمرارية.

4. أصبح المعلمون بمنزلة التجار وتكدست الثروة في أيديهم حيث استطاعوا أن يحتضنوا الطوائف جميعها، حيث فقد العديد منها استقلاليتها، يضاف إلى ذلك أن تفتتت الطوائف الحرفية من الداخل إلى طوائف صغيرة وعاجزة عن حماية نفسها من سيطرة المعلمين التجار.

5. عندما بدأت العلاقات الخارجية تزدهر ونطاق السوق الخارجي يتسع نطاقه، أصبح من الضروري الحصول على المواد الخام من الخارج، ولما كانت الطوائف الحرفية بوضعها القائم آنذاك، لا تستطيع القيام بهذه المهمة، فقد انتهز التجار الفرصة وقاموا بشراء المواد الخام وتوزيعها على الصناع في منازلهم ثم جمع الإنتاج وتصريفه في الأسواق، وهكذا بدأت الخطوات الأولى لنشأة نظام الوسطاء، حيث إنتقلت السلطة من المعلمين إلى الممولين الذين أصبحت لهم الكلمة في مجال الإنتاج والتوزيع.

6. أصبح بإمكان الحرفيين تصريف منتجاتهم عن طريق بيعها في الأسواق الخارجية بواسطة التجار والممولين Entrepreneurs، وبهذا أصبح بإمكان الحرفي أن ينتج ويبيع منتجاته لحساب التجار الذين يتولون تصريف المنتجات وتوزيعها في الأسواق الداخلية والخارجية؛

opelkanal.com

وبذلك فقد الحرفي استقلاليته وأصبح تابعاً للممول الذي زاد نفوذه عبر هذا النشاط الإنتاجي الجديد[14].

نظام الإنتاج المنزلي (الوسطاء)

ظهر هذا النظام الذي ركز في بادئ الأمر على صناعة الصوف في بريطانية في القرن الثالث عشر، وقد بلغ ذروته ما بين القرن الخامس عشر والثامن عشر ويعني ذلك أنه قام إلى جانب كل من النظام الحرفي ونظام المصنع الحديث[15]، وقد أطلق عليه شنايدر Schnieder اسم نظام الوسطاء Putting out System إلا أن كثيراً من المهتمين بعلم الاجتماع الصناعي يفضلون أن يطلقوا عليه نظام الإنتاج المنزلي Domestic Production System، وذلك لأن الإنتاج في ظل هذا النظام يتم داخل منازل العمال[16].

وقد شكل هذا النظام دفعة قوية للتجار في منافسة الطوائف كما أسهم هذا النظام بتخليص الصناع والحرفيين من أصحاب الطوائف ومراقبتهم، حيث يتم العمل في المنازل وفي القرى البعيدة حيث يقومون إلى جانب عملهم الزراعي بالعمل في صناعات معينة ذات علاقة بالزراعة، وفي هذا النظام يقوم أفراد العائلة جميعاً رجالاً ونساء وأطفالاً بالعمل وإنجاز المطلوب، وذلك لمواجهة صعوبات الحياة التي كانت آخذة في الازدياد، وعن طريق هذا النظام عادت الصناعة إلى المنزل، وأصبحت العائلة وحدة الإنتاج الأساسية في المجتمع.

ويؤكد المؤرخون الاقتصاديون أن نظام الوسطاء يرتبط في وجوده بظهور طبقة الرأسمالية التجارية التي وجدت عوامل بروزها في القرن الخامس عشر والسادس عشر عبر ثلاث قنوات وهي:

---

(14) Schnaider Ibid p. 35-36

(15) Schnaider opcet p. 37

(16) محمد ماهر عليش، العلاقات الإنسانية في الصناعة، مكتبة عين شمس، القاهرة، بدون تاريخ ص 4-3.

Openkandil.com

- الثورة التجارية
- ثورة المكتشفات الجغرافية
- الثورة السياسية

الثورة التجارية: حققت الحركة التجارية Mercantilism تقدماً كبيراً عندما بدأ الأمن والاستقرار يستتبان تدريجياً في أوروبة، كما أدى تطور المواصلات (الطرق) إلى لعب أداء دور رئيس في عملية توزيع المنتجات، إضافة إلى ذلك فإن حركة التجار قد أسهمت في تحرير الأفراد من عقلية القرون الوسطى، ومدت المجتمعات الأوروبية بأسلوب جديد للتفكير في زيادة الدخل مما مهد إلى ظهور طبقة الرأسماليين الذين كان جل همهم زيادة أرباحهم وتوسيع دائرة سيطرتهم الاقتصادية.

ثورة المكتشفات الجغرافية: أسهمت الكشوفات الجغرافية خاصة للعالم الجديد في زيادة توسيع رقعة التبادل التجاري وفتح أسواق خارجية للمجتمعات الأوروبية، كما أخذت الدول الأوروبية تتنافس على استعمار المناطق المكتشفة الجديدة، مما أدى إلى تدفق الذهب والفضة إلى البلاد المسَتعْمِرة، واتساع الأسواق وما صاحب ذلك من ارتفاع في الأسعار مما دفع بالتجار إلى فرض سيطرتهم بكونهم المركز الاقتصادي المؤثر في حياة شعوب أوروبة والمستعمرات المختلفة التابعة للدول التي ينتمون إليها.

الثورة السياسية: كان لآراء المفكرين السياسيين والاجتماعيين أمثال منتسكيه Muntiskue وجان لوك J. Lock وهوبز Hobes وجان جاك روسو Rousseau وفوليتر Foltair وغيرهم، أثر في تغيير الوضع الاجتماعي، حيث كان من نتائج هذه الأفكار أن ضاق الخناق على الإقطاعيين مما أدى إلى انتهاء هذا النظام حيث لم يعد التجار وغيرهم من الأفراد يدفعون الضرائب لأمراء الإقطاعيات، ونتيجة لذلك فقد اضمحل هذا النظام الذي كان معتمداً على الكنيسة في تشديد

سيطرته على الأفراد، وقد حل مكانه نظام سياسي آخر يعتمد على الملكية التي أخذت من المدن أساساً لتثبيت حكمها في مختلف الأقطار آنذاك، كما شهدت المجتمعات بعد مرحلة الإقطاعيين ظهور الدولة القومية بوسائل حكمها الدستورية من ناحية واعتمادها على فلسفة اليتي ريون Reon الاقتصادية من ناحية أخرى، التي كما يقول المحجوبك: «كان من مصلحة الملوك أن يعتمدوا على برجوازية المدن في تحطيم الإقطاع، وفي الحصول على المال اللازم لمختلف المشروعات، ومع هذه الثورات الثلاث قويت الطبقة البرجوازية التجارية، وأقبلت على تمويل الإنتاج الصناعي، خاصة بالنسبة للصناعات التي تصدر منتجاتها إلى الخارج لما تتطلبه من موارد مالية كبيرة»(17).

ومما ساعد على ازدهار هذا النوع من نظام التصنيع عدد من العوامل، فصناعة النظام المنزلي ليست بحاجة إلى مكان فسيح، ولا تعتمد على القوة الآلية الكبيرة، حيث إن معظم عمليات الإنتاج يمكن القيام بها في حجرات صغيرة، كما أن العمال يرون في هذا النظام وسيلة فعالة لتحررهم من القيود التي يفرضها عليهم أصحاب رؤوس الأموال، يضاف إلى ذلك فسح المجال للزوجات والأطفال للمشاركة في الإنتاج مما يدعم حالة الأسر الاقتصادية مع الإبقاء على هذا التوجه الاجتماعي لبقاء الأمهات داخل المنازل للعناية بشؤون عائلتها، إضافة إلى عملها بجانب زوجها في الإنتاج وزيادة دخل الأسرة.

كما أن الوسطاء وجدوا في هذا النظام عاملاً لزيادة أرباحهم مع إعفائهم في الوقت نفسه من التزامات متعددة وتكاليف عالية، فقد عوضهم هذا النظام عن إقامة المصانع، وأعفاهم في الوقت نفسه من المسؤوليات القانونية المتعلقة بشؤون العمال والنقابات، وتنظيم بيئة العمل والتهرب من الضرائب المقررة، كما أنه تحت هذا النظام للإنتاج يستطيع التجار التحكم بكمية السلع المنتجة، فإذا قل الطلب على سلعهم أوقفوا العمل دون التعرض لأي خسائر من كثرة الفائض من السلع المنتجة.

(17) رفعت محجوب – الاشتراكية، دار النهضة العربية 1965م، ص 90-91.

ولم يكتف الوسطاء بهذه الميزات من هذا النظام؛ بل حاولوا بسط نفوذهم وسيطرتهم على الصناع عن طريق إغراقهم بالديون حتى يظلوا خاضعين لهم، ومضطرين إلى تقديم ما يطلب منهم في الوقت الذي يحدده الممول.

كما أن هذا النظام ذو رؤية يتناسب مع الظروف الاجتماعية السائدة حينذاك، حيث إنه يفسح المجال لعمل المرأة دون خروجها من المنزل وبذلك يمكنها من الجمع بين وظيفتيها الأساسيتين وهما رعاية الأسرة وتربية الأطفال، بالإضافة إلى مشاركتها في العمل مما يعود على الأسرة بالمزيد من الدخل المادي وتحسين مستواها المعيشي.

وقد وجد التجار أنفسهم في هذا النظام الذي يحقق لهم أرباحاً طائلة، ويعفيهم في الوقت نفسه من تشييد الورش التي تكلفهم مبالغ كبيرة بالإضافة إلى ما تتطلبه تلك المصانع من نفقات إدارية باهضة، كما أصبح للتجار القدرة في ظل هذا النظام على التحكم في كميات الإنتاج، وفيما يتعلق بعلاقة الوسطاء بالصناع فقد ذكر شنايدر Schneider: «إن هؤلاء الوسطاء اتجهوا إلى إغراقهم بالديون حتى يظلوا خاضعين لهم ومضطرين إلى تقديم ما يطلب منهم في الوقت الذي يختاره الممول، وبالأجر الذي يحدده، كما تغير وضع الصانع فبعد أن كان مالكاً لأدوات الإنتاج في ظل نظام الحرف القديم، وجد نفسه في ظل هذا النظام الجديد مضطراً لاستئجار الأدوات من التاجر نفسه، وبهذه الطريقة فقد الصانع حرفته واستقلاله، وتحول إلى مجرد عامل أجير»[18].

وقد نتج عن هذا النظام الإنتاجي الجديد طبقتان اجتماعيتان مرتبطتان بطابع نفعي بحت، فالتجار لا يهمهم أن تقوم بينهم وبين المشتغلين لحسابهم أي روابط شخصية أو علاقات ذات طابع أولي، وما يرونه ضرورياً هو أن يقوم هؤلاء بالإنتاج في أقصر وقت ممكن وبأقل تكاليف مدفوعة، وهكذا أصبحت العلاقة العائلية التي كانت سائدة في النظام الحرفي علاقة رسمية ذات طابع عقدي.

(18) Schneider of Cit P. 38

وقد اكتشف الممولون أن هذا النظام الإنتاجي بأسلوبه القائم يضيع عليهم فرصاً كثيرة للكسب مع اتساع الأسواق التجارية، حيث زاد الطلب على المنتجات الصناعية بصورة كبيرة، كما أنهم بدوا يشعرون بأنه ليس بإمكانهم ضمان معدلات ثابتة للإنتاج، وذلك لانشغال الصناع في أعمال أخرى، إضافة إلى ذلك فإن الممولين كانوا يقضون أوقاتاً طويلة في توزيع المواد الخام المراد تصنيعها من منزل إلى آخر، وكذلك بالنسبة إلى جمعها بعد إنتاجها وعملية تصنيعها، ولذلك يقول كل من ميلر وفورم Miller and Form: «فقد فكروا في نظام جديد يجمع بين العمال تحت سقف واحد ويجعلهم في الوقت نفسه خاضعين لإشرافهم المباشر، فاتجهوا إلى إنشاء المصانع اليدوية الصغيرة (الورش)، وجمعوا فيها العمال وأمدوهم بكل وسائل الإنتاج»[19].

المصانع اليدوية:

ظهر هذا النوع من نظم الإنتاج أثناء القرن السادس عشر الميلادي واستمر حتى القرن الثامن عشر خاصة في المملكة المتحدة، وقد نشأت فكرة المصنع اليدوي على يد أحد الأغنياء مالياً حيث قام بإنشاء مصنع يعمل بداخله مع عدد من العمال المستأجرين، وكان صاحب المصنع تحت ظل هذا النظام يمتلك رأس المال المستثمر (الأرض، والبناء، والآلات، والمواد الخام المستخدمة في العملية الصناعية الحديثة) وكانت الأدوات والآلات المستخدمة مصنوعة من الخشب والحديد وتعتمد في دورانها على القوة الجسمانية للعمال، وقد لوحظ في هذا النظام نمط جديد يقول عنه عزت: «وظهر في هذا المصنع نمط في تقسيم العمل»[20].

وتعدّ الصناعة اليدوية الشكل الأعلى للإنتاج الصناعي في أوروبة منذ منتصف القرن السادس عشر، وهي تمثل مرحلة انتقالية من الإنتاج الحرفي

(19) Miller and Form op . cit P. 31-32

(20) عبدالعزيز عزت، الاجتماع الصناعي، الجزء الأول، الطبعة الثانية القاهرة 1961م، ص 64.

والصناعة الحديثة المتقدمة، فهي تقترب من الحرفة لاعتمادها على المهارة اليدوية، كما أنها تمثل بداية للصناعة الآلية الرأسمالية بوصفها شكلاً من أشكال الإنتاج المتطور المعتمد على استغلال الأجراء وتجميعهم في مكان واحد لهدف الإنتاج، ومن أهم مظاهر هذا النظام الإنتاجي ما يلي:

1. ملكية الأدوات تعود إلى صاحب العمل.
2. صاحب العمل هو المالك للسلع المنتجة.
3. يقوم بالإنتاج عديدٌ من العمال بدلاً من عامل واحد مما يجعله مختلفاً عن نظام الصناعة الحرفية.
4. ظهور نمط تقسيم العمل.
5. أصبح تدريب العمال جزءاً أساسياً لعملية الإنتاج، كما أن تدريب مجموعة من العمال أسهل من تدريب عامل واحد وأرخص أيضاً.
6. انخفاض أجور العمال تحت هذا النظام حيث أصبح صاحب رأس المال يدفع أجوراً أقل للعامل مما كان يدفعه تحت ظل نظام الحرف.
7. إدخال أدوات وقوى جديدة في عملية الإنتاج مما سمح بتشغيل الأطفال في بعض الأعمال.
8. تقسيم العمل في ظل هذا النظام أدى إلى فصل العمليات العقلية في الإنتاج عن العمليات اليدوية، فبعد أن كان صانع الحرفة اليدوية تنمو لديه الخبرة بأمور العمل وشؤونه وبشؤون الإدارة، فقد أصبحت هذه الأمور من اختصاص أفراد آخرين، مما أدى إلى تعارض بين القائمين بالعمل اليدوي مع تلك التي تستوجب بعضاً من العمليات العقلية والحسابية، ويوضح كارل ماركس هذا التناقض بقوله: «الصناعة اليدوية تشوه العامل وتجعل منه كائناً شاذاً، وذلك بتنشيط النمو

الزائف لمهارته في العمليات التفصيلية، والتضحية بعالم واسع من الاستعدادات الطبيعية والدوافع الإنتاجية، وفي الأصل يبيع العامل قوة عمله للرأسمالي لافتقاره لوسائل الإنتاج المادية، حتى صارت قوة عمله الآن لا تقوم بأي عمل جدي إذا لم تبَعْ» ويستطرق قائلاً: «إن مجموع كل المعرفة والذكاء والإرادة التي يبذلها الفلاح والحرفي لم تعد مرتبطة إلا بالورشة بصفة كليّة، إن القوى الذهنية في الإنتاج تنمو من جانب واحد؛ لأنها تختفي من الجوانب الأخرى جميعها، ويتركز في رأس المال كل ما يفتقده العمال الجزئيون، وأن التقسيم في الصناعة اليدوية يواجه العمال بالقوى الذهنية في الإنتاج بوصفه ملكية للآخرين، وسلطة تسيطر عليهم، إن هذا الانقسام يصل إلى قمته في الصناعة الكبيرة التي تخلق من العلم قوى إنتاجية مستقلة عن العمل وتوظيفها لرأس المال»[21].

نظام المصنع الحديث:

يشكل قيام المصنع بنموذجه الحديث آخر ما وصل إليه الإنسان في تقدمه التقني عبر مسيرته التاريخية الطويلة في العملية الإنتاجية وكما رأينا فإن عملية التصنيع لم تكن وليدة اليوم وإنما كانت نتائج التفكير الإنساني منذ فجر البشرية، ولعل ما وصل إليه الإنسان في أسلوب عمله الإنتاجي والصناعي الحديث يمثل تغيراً جذرياً وإبداعاً متميزاً في استغلال المواد الطبيعية وتحويلها إلى سلع ذات منفعة للمستهلك، وتزويد المنتج أو صاحب رأس المال بقيمة مضافة تشكل بالنسبة له دافعاً أساسياً للاستمرار في استثمار عوائده المالية وزيادة دخله وتوسيع رقعة أعماله واهتماماته، مما يقود إلى زيادة في الدخل القومي للمجتمع وتوفير فرص وظيفية مختلفة لعديد من الأفراد المنخرطين في نظام التصنيع الحديث للمنتجات.

(21) كارل ماركس. رأس المال، الكتاب الأول، المجلد الثاني، ص 50-49.

openkandil.com

كما أن المصنع الحديث بالإضافة إلى كونه منشأة إنتاج، فإنه يشكل في الوقت نفسه نسقاً اجتماعيًا حيث يلتقي الأفراد المنتمون إليه بعضهم إلى بعض، وبذلك فهم يشكلون جماعات أولية وثانوية ويتوقف نجاحهم في تحقيق الهدف المنشود من هذه المنشأة على مدى التفاعل الاجتماعي والانسجام فيما بينهم وكيفيتهما.

ومن الملاحظ أنه منذ ظهور النمط التقليدي للمصنع لأول مرة في المملكة المتحدة في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي، فقد أخذ بالتطور سواءً من حيث خصائصه العامة أم خصائصه البنائية بفعل متغيرات تقنية واقتصادية وسياسية أعطت المصنع الحديث صفة عالمية، وغيرت كثيراً من المفاهيم والمعطيات المرتبطة بدراسته كونه تنظيماً ونسقاً اجتماعياً، وتعددت آراء العلماء والباحثين في تأثيرات الثورة الصناعية الراهنة على الأنماط التنظيمية الصناعية، وعلى عملية التصنيع بصفة عامة، حيث قامت صناعات وتنظيمات في مجال صناعة الحاسبات والاتصالات والفضاء ذات خصائص تنظيمية مختلفة كثيراً عن ذلك النموذج البيروقراطي الذي طوره ماكس ويبر، كما أن التنظيم الاجتماعي للمصنع في ظل هذه الثورة الحديثة (الثورة الصناعية الثالثة) يمر بمتغيرات جذرية لا تزال في طور التشكيل والتبلور، وتأخذ هذه القضية الجزء الكبير من اهتمامات علماء الاجتماع الصناعي وخصوصاً في مجال دراسة التنظيم الاجتماعي، ومحاولتهم الوصول إلى نموذج أو نظرية تأسيسية بإمكانها تفسير التحولات في البناء التنظيمي للمصنع في إطار ظاهرة التطور الصناعي الدولي.

تعريف المصنع:

تتعدد التعريفات بالنسبة للمصنع الحديث وذلك بناءً على العائد المادي من الاستثمار في عملية الإنتاج أو إلى الرؤية الاجتماعية للمصنع من حيث كونه نسقاً اجتماعياً منظماً، وعليه فيعرّف ماكس ويبر Max Weber المصنع بأنه «نظام يتصف بوجود ورش منظمة، مزودة بوسائل إنتاج غير بشرية ومملوكة لصاحب

العمل وحده دون العاملين ويتصف نظام المصنع بالتخصصية Specialization وتقسيم العمل Division of Labour ووجود قوة ميكانيكية آلية تحتاج إلى تخصص دقيق في تشغيلها والعناية بها»[22]، وفي تعريف آخر للمصنع يرى لطفي بأن المصنع «هو عبارة عن ورشة صناعية تضم كلاً من قوة العمل ورأس المال»[23] إلا أننا نعتقد أن الشيء المفقود في هذا التعريف وجود الآليات وقوة ميكانيكية على نطاق واسع.

أما عليش فيرى بأن تعريف نظام المصنع الحديث «بأنه مجرد مكان للإنتاج، لم يعد صالحاً للقرن الواحد والعشرين ذلك أن المصنع قد أصبح ينظر إليه على أنه مجتمع صغير تنعكس فيه كل مظاهر المجتمع الكبير، إذ يوجد فيه التعاون والمنافسة، والحب والكراهية، وغير ذلك من الصفات الإنسانية المختلفة، كما أن المصنع يوجد به الرئيس والمرؤوسون، ولا بد أن تنشأ صلة بين الطرفين، بالإضافة إلى أن المصنع يضم بين جنباته كثيراً من الآلات ولا بد أن تنشأ صلة بين العامل والآلة فكلاهما يؤثر بالآخر ويتأثر به»[24].

وبالعودة إلى تعريف ماكس ويبر للمصنع نجد أن ميلر وفورم يقدمان التحليل الآتي بالنسبة له حيث يريان أن المصنع الحديث «هو النظام الذي يتميز بوجود ورش منظمة، مزودة بوسائل إنتاج غير بشرية، يمتلكها جميعاً شخص واحد هو صاحب العمل دون العمال، ويظهر فيه مبدأ التخصص وتقسيم العمل حيث توجد قوة ميكانيكية آلية تحتاج إلى تخصص دقيق لتشغيلها والعناية بها»[25] وتجدر الإشارة إلى أن هذا التعريف السابق لنظام المصنع الحديث يشتمل على عدد من الخصائص التي من أهمها: وجود الورش المنظمة، وتوفر القوة الميكانيكية في

(22) عبدالباسط حسن، علم الاجتماع الصناعي، مكتبة الأنجلوا المصرية، القاهرة، 1982 م، ص 113.

(23) طلعت إبراهيم لطفي، علم الاجتماع الصناعي، دار غيرسب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1996م، ص 43.

(24) محمد ماهر عليش. مصدر سابق، ص 32-31.

(25) Miller D. and Form. W. Industrial Sociology. The Sociology of Work Organization, First reprint ed Japan 1964. p 29

openkandil.com

الإنتاج وأهمية وجود التخصص وتقسيم العمل، والفصل بين العمل وملكية وسائل الإنتاج وعليه فلا بد لنشأة المصنع أن تتوافر له هذه الخصائص، علماً بأن بعضاً منها قد وجد في مراحل تاريخية سابقة، إلا أنها لم تتوافر جميعها إلا أثناء مرحلة الثورة الصناعية.

أما عن الرأسمالية الصناعية التي تعدّ الأساس في قيام كيان المصنع الحديث فيعرفها ويبر M.Weber بأنها «التنظيم المنسق الرشيد للإنتاج»[26] ويستطرد قائلاً بأنها: «البحث عن الفائدة المتجددة باستمرار في مؤسسة دائمة قائمة على التنظيم العقلي» وبأنها «البحث عن العائد، ويقوم النظام الصناعي الرأسمالي الغربي في صورة مؤسسات إنتاجية تعتمد على التنظيم الرسمي للعمل الحر، وقيام صاحب العمل باتخاذ القرارات على مسؤوليته الخاصة، والإنتاج بغرض البيع في سوق مجهولة، والاعتماد على مبدأ المنافسة الحرة والمتوازنة المستمرة والرشيدة بين التكلفة والعائد ووضع قواعد للمحاسبة الدقيقة والعقلانية»[27].

وتأخذ هذه التعريفات بعين الاعتبار انطباقها على نمط واحد فقط هو النمط الصناعي الرأسمالي، الذي عرفته المجتمعات الغربية منذ قيام الثورة الصناعية في منتصف القرن الثامن عشر، الذي يسميه ويبر «الرأسمالية المتقدمة، أو الرأسمالية البرجوازية (العقلانية)»، التي تعتمد أساساً على العوامل التكنولوجية، التي هي نتيجة لتطبيق المعرفة والعلوم الطبيعية والرياضيات والتجربة العملية، هذا وقد حاول ويبر تأسيس المنطلقات النظرية للرأسمالية الصناعية التي من أهمها (العمل الشاق، والاقتصاد في الإنفاق، وضبط النفس، وتجميع رأس المال، والإبداع والابتكار، والعقلانية) وحسب ما يراه ويبر أن هذه القيم والخصائص كانت ضرورية في المراحل الأولى لقيام الرأسمالية الصناعية، حيث إنها تعتمد على المشروعات الخاصة، وعمل الأفراد والاعتماد على

(26) Jose Medina Echolalia Atheistically Model of development . Application to Latin America in Social aspects of Economic development in Latin America p. 24

(27) عبدالباسط محمد حسن، مصدر سابق، ص 113.

المؤسسات الصناعية الضخمة، ذات الطابع الرسمي، وقد كانت الرأسمالية في ذلك الحين بحاجة إلى أصحاب مشروعات متحمسين للعمل الشاق، وميالين للاقتصاد في الإنفاق ولديهم حب المجازفة والمغامرة، ولديهم القدرة على المنافسة في مجال المال والأعمال، والرغبة في تجميع رؤوس الأموال، ولذا كان من المهم أن يتصف صاحب العمل والعاملون معه بصفات شخصية أساسها حب العمل والانضباط حتى يتمكنوا من القيام بأعمالهم على الوجه المطلوب.

هذا وقد ربط ويبر بين ظهور الرأسمالية الصناعية بأخلاقيات المذهب البروتستانتي، وأن النشاط الصناعي أكثر انتشاراً في المناطق الشمالية من ألمانية وفرنسة وإنجلترة وأيرلندة عنها في المناطق الجنوبية، كما لاحظ عن طريق الرجوع إلى الإحصائيات وجود أكثرية من البروتستانت في الشمال عن الجنوب، وبالإضافة إلى أن أصحاب رؤوس الأموال في البلاد الغربية معظمهم من البروتستانت وأن البروتستانت ترتفع نسبة ذهابهم إلى المدارس الصناعية والمعاهد الفنية عن نسبة الكاثوليك الذين تعلو نسبهم في المدارس الثانوية. وقد يؤخذ على ويبر مبالغته في أهمية الدين في قيام الرأسمالية الصناعية حيث إنه أغفل أسباباً أخرى مثل: الهجرة من القرى إلى المدن ومن العالم الأوروبي إلى العالم الجديد، والإنتاج التجاري، وثروات المستعمرات ووجود الآلة وتطويرها، وبالإضافة إلى هذه الأسباب فعندما كان يشيع استعمال الآلات في الصناعة، حيث تمكن جميس دان من استخدام الآلة البخارية في الصناعة، كما تمكن عدد من المخترعين الإنجليز من اختراع آلات الغزل والنسيج وتطويرها فاستعاضوا بها عن قوة الإنسان، وقد كان لظهور المخترعات التكنولوجية أثر كبير في تقدم الصناعة الآلية وفي انتشار نظام المصانع، وقد اهتم كارل ماركس وكوتريل ووليام أو جبرن وغيرهم بالتأكيد على أهمية العوامل التكنولوجية في التغير، فعلى الرغم من أن ماركس يبرز أهمية العامل الاقتصادي في تغير الحركة الاجتماعية، إلا أنه يبرز كذلك أهمية العامل التكنولوجي بصفة خاصة، فالآلة

اليدوية كما يراها ماركس Marks تخلق المجتمع الإقطاعي والآلة البخارية تخلق المجتمع الصناعي الرأسمالي، والرجال نفسهم الذين يخلقون من العلاقات الاجتماعية ما يتفق مع إنتاجهم المادي يخلقون كذلك من المبادئ والأفكار والطبقات ما يتفق مع علاقاتهم الاجتماعية.

ولعله من الأهمية بمكان عدم جعل العامل التكنولوجي هو المسبب الوحيد للتغير، حيث إن التغير قد يبدأ في أي جانب من جوانب الحياة الاجتماعية، ونظراً لترابط الظواهر والنظم الاجتماعية، فإن أي تغير في أي جانب من جوانب الحياة الاجتماعية كفيل بأن يؤدي إلى إحداث تغييرات أخرى في بقية جوانب حياة الناس.

ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى قيام نظام الصناعة الجديد اكتشاف طاقات جديدة للصناعة مثل الفحم والحديد والكهرباء والبترول، إذ إن المناول والطواحين اليدوية التي تدار بالأيدي والدواب كانت موجودة في المناطق الريفية والحضرية على السواء، غير أن اكتشاف الفحم واستخدامه في الصناعة أدى إلى توطين الصناعة بجوار المناجم لاعتبارات اقتصادية وفنية، منها أن الفحم يفقد معظم وزنه في عملية الإنتاج والنقل، كما أن نفقات نقله باهظة، ولذا انتقل السكان إلى جوار مناطق الفحم مما أدى إلى نشأة مدن جديدة عرفت بالمدن الاستخراجية وإلى بروز ما عرف بالمدن الصناعية.

وقد كان لاكتشاف الطاقة الكهربائية أهمية بالغة في تقدم عالم الصناعة حيث تمتاز الطاقة الكهربائية بعدد من الخصائص التي تميزها عن الطاقة البخارية ومن هذه الخصائص الآتي:

1. انطلاق الطاقة الكهربائية في سكون وانتشارها في أماكن عديدة وبعيدة.
2. الطاقة الكهربائية لا تلزم الصناعة بأماكن معينة.
3. استخدام الطاقة الكهربائية لا يخلف تلوثاً للبيئة.

openkandil.com

4. نظراً لأن الطاقة الكهربائية تحتاج إلى استخدام القوة المائية فقد أعادت إلى مساقط المياه أهميتها التي فقدتها عندما اكتشفت الطاقة البخارية.

5. ساعدت الطاقة الكهربائية واستغلالها في المصانع إلى ظهور ما عرف بنظام التضامن في المصنع الواحد، فبعد أن كانت المصانع الأولى تختص بإنتاج جزء واحد لا يمكنه أن يصل مباشرة إلى المستهلك، ظهر التكامل في المنشأة الصناعية باندماج عدد من العمليات الصناعية المتكاملة، بحيث أصبح بالإمكان أن تمر في المصنع الواحد كل مراحل الإنتاج حتى تخرج السلعة جاهزة للاستهلاك.

ويشكل استخدام البترول في الصناعة عاملاً مهماً من عوامل التقدم الصناعي وذلك لعدد من الأسباب نذكر منها:

1. لا يشغل حيزاً كبيراً.

2. يوفر مكاناً وذلك بالاستغناء عن أجهزة كبيرة تستعمل غلايات للمياه لتوليد البخار.

3. يوفر العديد من العمال الذين كانوا يعملون في نقل الفحم.

4. بالإضافة إلى أن استعمال البترول أنظف من استعمال الفحم.

ومن العوامل الأساسية التي ارتكزت عليها الصناعة، الموارد البشرية حيث كان للهجرة أثر كبير في تقدم الصناعة في البلاد الأوروبية وخصوصاً في إنجلترة، إذ إنها استقطبت أعداداً كبيرة من العمال والصناع المهرة وأرباب الحرف الذين فروا من فرنسة وألمانية وهولندة، حيث كانت هذه العناصر من أقدم المشتغلين بالإنتاج الحرفي وتميز بعضهم بالقدرة على الاختراع، ومنهم تعلم الشعب الإنجليزي وعلى جهودهم قامت الأسس للصناعة في بريطانية.

obeikandl.com